رماد المدن ورصاص المقاتلين

زهير هوّاري

١٠ أعوام على المقاومة الوطنية

تبدو المدينة صامتة تحت كثافة رصاص أُذيب إلى درجة الانسياح في تجويفات الوجه، وتجمّدَ حتّى حدود الاختناق. النوافذ التي فُتحت على الهزيمة أُقفلت على الرعب. لم يكن قد مرَّ طويل وقت على وقف إطلاق النار ومغادرة المقاتلين الفلسطينيّين مبحرين كما في قصص المدن الساحليّة القديمة. هذه المرّة لم يكن الفلسطيني يرتدي ثياب البحر، ويمتشق المجاذيف وحكايات الأمواج. بل كان يضع على رأسه كوفيّته الملوّنة وصبرَه الأسئلة التي يحملها على ظهره علاماتِ استفهام حول إمكانيّة استمرار التراجيديا الإغريقيّة في غير زمانها. كأنَّ التاريخ قد انشقَّ إلى نصفين في تلك اللحظة من أيّام بيروت التي تعلّمت أن تتّكئ دوماً على بيت السلحفاة العظميّ، فإذا بكلِّ ما أنجزته يصبح ركامَ حرب، قبل أن تطمره الأيّام الآتية، نهوضاً من رماد الموت.

انشقَّ التاريخ تلك اللحظة إلى نصفين: النصف الأوّل ظلّ على اليابسة مع الذين تعذَّر عليهم الرحيل، لا لسبب إلّا لأنّهم ماتوا، أو لكونهم قالوا إنَّ الشعوب لا تُنهي حروبَها بمعركة واحدة مهما امتدَّت مساحةُ أيامها. وكانوا يعرضون علينا، نحن اللبنانيّين، تزويدَنا بجوازات سفر للخروج. وأمّا الفلسطيني الباقي فكانوا يعدُّون له السكّين وحدها. والنصف الثاني كان يجوب ماءَ البحار المراقَبة بالبوارج وحاملات الطائرات والأقمار الاصطناعيّة ووسائط التجسُّس والرادارات الحديثة. والمدينة التي أفرغت بعضَ ما تمتلكه من ذخائر في فضاء الوداع الأزرق انكفأتْ إلى الهدوء... أو ما ظنّته الهدوء بعد أن أتعبها كثيراً ضجيج الحرب؛ كأنَّ الحرب بما حملته من منوّعات أصواتِ آلتِها العاتيةِ أخْلَتْ مكانها هذه المرّة أيضاً لذهول المستقبل المفخَّخ.

كثيرون هم أولئك الذين رسموا مساراً للأيّام الآتية لا مجالَ للتغيير فيه. فالأحكام نافذة، مبرمة، لا تقبل طعناً أو استئنافاً. بيروت التي لعقت انقاضَها ودمَها مجبولاً بالعطش والخوف لم يعد لديها ما تقاتل من أجله، أو من تقاتل دفاعاً عنه. هكذا كانوا يكرِّرون القول. ما كُتب قد كُتب، وما حدث قد حدث. ولم يَبقَ سوى الوقوف في محطّة انتظارِ الذي لا يأتي، وما ستسفر عنه المفاوضاتُ التي تدور في كواليس الاتّصالات الديبلوماسيّة التي يديرها فيليب حبيب بين واشنطن وتل أبيب وبعبدا. كان الأمرُ هذه المرّة بمثابة تكرار مأساوي لتلك الكذبةِ التي صوّرها الرحابنة في مسرحيّتهم، وقيل يومها إنَّ الفكرة جاءتهم من «بيكيت» رائد العبث في المسرح. ومع ذلك، فلم يكن على السماسرة وتجّار العقارات وكبار الملّاكين إلّا أن يجعلوا من المساحة بازاراً أكبرَ ممّا يوحي اتّساعه الجغرافي. لم يكن المطلوب سوى الهدوء، وقد تحقّق. والسكينة جاءت لامعةً كنصل خنجر تحت خطٍّ من الإضاءة النافذة. لم يبق أكثرُ من ترتيب الإخراج والشروع في تنفيذ العمل؛ فقد غاص السيخ عميقاً في أوردة الرقبة. وبعد إتمام عمليّة الذبح، والسلخ، وتقطيع الأوصال، وفصل اللّحم عن العظام، وإلقاء بعضِ القطع التي لا قيمة لها لكلاب الحراسة، فقد بات المطلوبُ الإعلانَ عن موعد المناقصة التي تعلن افتتاح مهرجان البيع والشراء. ولنا أن نتصوَّر الاختلاط بين الصخب المدويّ وفاصل السكون المفروض. والسفن الأطلسيّة تجوب المياه القريبة، تُظَلِّلُ المدينةَ بما فيها من عماراتٍ وشطوط صخريّة ونفايات عائمة على السطح وتلوّثٍ سياسيٍ سافر ومكشوف. لم تعد «ديبلوماسيّة البوارج» هذه المرّة، بل أُعيدت مشهدةُ السياسة بعهدة «بوارج الديبلوماسيّة»، وأمّا آلة الحرب الاسرائيليّة فقد تكفّلت بالتنفيذ في سياق الإعداد للنهاية المقرَّرة سلفاً. وكان بشير الجميّل على رأس الهرم برعاية فريق العمل الذي جاء به إلى سلطة الفصل بين مرحلتين: واحدةً غربت، وغابت في اليمّ، وابتلعها حوت يونس الأسطوري؛ وثانية آتية لا ريب فيها.

يتحرّك بشير الجميّل لقطف ثمار المقدّمات التي حملته إلى سدّة العرش. الأميركيُّون بيننا وعلى رؤوسنا وأكتافنا: أميركيُّون يجيدون لغةَ التصريحات المدروسة للصحف والإذاعات؛ وآخرون بثياب الميدان، وعدّة الحرب المموَّهة، وشعرٍ مقصوص على طريقة المارينز المعروفة. ومع الأميركيّين أتى آخرون من جنسيّات متعدِّدة، بعضهم يضع على رأسه ريش طاووس تأشيراً على زهو الغالب، والبعض الآخر «قُبّرتُه» علم بألوان تجوب الشوارع أو تعلن عن الحيازات. المدينة التي كانت لنا لم تعد لنا، كأنّنا نمتلكها بالحرب، ننتزعها بالدم

لا غير: لا تنصاع ساحاتها لإرادتنا إلّا لحظةَ اندلاع موسمِ الموت وتواصِل الرصاص بين المتاريس والأبنية المجدورة في داخلها أو على مداخلها.

جاءت الجرّافاتُ تُعلن انتصارها علينا، نحن الذين بذرنا طرقات المدينة شهداء وأكوامَ رَمل. لم تقل الجرّافات لنا كلاماً كثيراً، فقط أدارات محرّكاتها وأزاحت أكوامَ الرمل التي كدّسناها على عجل، وفَتحت الطرقات، و«نظّفت» الأمكنة من ذكريات المواقع والمعارك، وحملت الشاحنات ما جمعته من غلال الحرب وألقت به إلى الشواطئ. اختلطت الأتربة بالماء المالح، ماءِ البحر الذي يكتب بسطور أمواجِه نهايةَ المواجهة. والفاشيُّون يعيشون بالمدينة ويعبثون بأحذيتهم العسكريّة في تفاصيل أوجاعنا. كأنّ انتصارهم لم يكن هو المطلوب، بل المطلوب سحقُنا نحن الذين تجرّأنا على ارتكاب فِعلة الحلم في الزمن المستحيل. «فرق الموت» تسرح وتمرح، تصطاد من تعثر عليه، يمتلئ مبنى المجلس الحربي الكتائبي بالمطلوبين وغير المطلوبين، وتغصّ الأقبيةُ بأرقامٍ كانت قبلاً لأناس يأكلون ويشربون ويذهبون إلى أعمالهم اليوميّة ويعودون إلى أُسرهم، إنْ بقيتْ لهم وجوهٌ يتفيّأون بها من قهر الذئاب المفترسة. «فرق الموت» تجوب المدينة، تشربُ علبَ البيرة، تأكل «الهمبرغر» في مطاعم «الفاست فود» التي افتُتحتْ سريعاً لتلبية الحاجات المتزايدة، قبل أن تعود إلى طبيعتها الأُولى.

رغم الصخب ـ الصخب الذي يحدّثك به النهار ـ فإنّ المدينة تنضو عنها عباءةَ خوف الليل الأسود، وتنكمش على ذاتها؛ فقد انتظرت كثيراً وطويلاً المعجزةَ التي لم تأتِ. فبين خروج المقاتلين الفلسطينيّين من بيروت وبقاء الاحتلال في انتظار انعقاد المفاوضات وتكلّلها بالنتائج المطلوبة، كانت الأمور بطيئة بعض الشيء: فالمدينة التي تعوّدت غلياناً لا تعرفه العواصم باتت جسداً مدمًّى حتّى حافّة النزف القاتل. قالت لي زميلة ألمانيّة يوماً: «كيف تعيشون في مدينة تتحرّك الأحداث فيها بهذه السرعة الجهنميّة؟ في كلّ يوم يصدر أكثر من «خبر»، يقع أكثر من «حدث» يصلح أن يكون «مانشيت» عندنا. نحن في ألمانيا نعتاش على مسألة عاديّة أيّاماً إن لم نقل أسابيع». المقاتلون يُبحرون في ماء الهزيمة، يبحثون عن ملاذ، لكلّ دفعة منهم مواصفات معلومة تماماً، ونحن هنا نبحر في الاستعداد بعد أن طوينا وراءنا مجدَ الجبهات وخطوط الحرب التقليديّة وقتال المواقع الثابتة.

وتبدو المغالبةُ في منحدر التراجع أشدَّ هَوْلاً ومكابدةً منها في زمن الصعود إلى القمّة. أنْ تَقفَ بصدرك في وجه السيل المندفع، معنى ذلك احتمال أن تدفعك الصخور بصلابتها إلى أن ترتطم بها فتمزّق منك الرِئةَ والأضلاع، جاعلة من هذه الأخيرة دقيقاً مطحوناً كسراب منفوش لا وزن له. كأنّ ما كان يحدث أشبه ما يكون بالقَدَر متحقّقاً على هذا النحو أو ذاك. من رَحَلَ قد رَحَلَ، ومن بقي حملَ عبْء المعاندة. تعوّدنا حينها أن نترقّب لحظاتِ التململ بين احتماليْ صرخةِ الحياة أو شهقة الموت التي تفترسنا واحداً إثر واحد وبوسائط كنّا في غمرات اليأس نراها مستحيلةَ الردّ. تعلّمنا جيّداً أن نسير في شوارع نعرفها ولا نعرفها، نرى وجوهاً لم يسبق أن صادفناها عندما كانت المدينة محدودة العدد مستنفرةً عُددُ القتال فيها. كأنّ أولئك الذين كانوا ملءَ المتاريس والملاجئ والأقبية قد ضاعوا في زحمة العودة المتدرّجة لإيقاع الحياة، في مكانٍ تعوّدَ امتصاصَ الهزائم والهازمين أيضاً.

كنت قد انتهيت من قراءة **إلياذة** هوميروس بترجمة من عنبرة سلام الخالدي. وكنت أُدرك أنّ المدينة باتت دونَ أسوار، وأنّ العدوّ لم يعد يقف على حدود المتراس المقابل، وأنّ زمن الفروسيّة قد ولّى، وأنّ أولئك الذين كانوا يخفّون ثقالاً لدى سماع صوت امرأة مستغيثة قد ماتوا مرّة واحدة وإلى الأبد، ودَرسْت قبورَهم رمالُ الصحارى المتّسعة. وكيف لمدينة وشعب ممزّقين أن ينهضا من تحت كلّ هذا الحديد الذي تحمله اليابسةُ وماءُ البحر، وعتادُ الجنود الذين يصعب تعدادهم؟ الآن أُعيدُ اكتشاف سرّ الرهان على التناقض بين هزيمتنا التي لا تنسى وانتصارهم الذي محوناه بدماء المقاومين الأوائل الذين غرسوا أملاً عصيّاً على التصديق في حماة الانكسار المطبق، وأعرفُ أنّ التاريخ لا يتكرّرُ بأشكاله وصوره السابقة؛ ذلك أنّ كلّ شيءٍ يتغيّر، بما في ذلك نحن الذين افتتنّا بالمعلّباتِ والأدوية المنّومة، وأدْمنّا الأملَ، ودرجنا على الخدر الذي جاءنا دفعة واحدة وعلى حين غرّة، مع أنّ حصار المدينة طال حوالي ثلاثة أشهر. تعلّمنا كلّ ذلك وأجَدْنا لعبةَ التمويه في كلّ الطرق التي نسلكها، وأجدنا أن نخبر الآخرين عن الأمكنة التي نقصد وعن ميعاد أوبتنا منها وأتقنّا أن نرجعَ القهقرى في مسالكَ متعرّجةٍ لإخفاء آثار أقدامنا، وإطفاء رائحتنا إذا ما تابعتنا الكلابُ البوليسيّة بهدف اقتفاء اثارنا نحو أماكن الاجتماعات وأوقاتها. كما أجدنا عمليّة الابتسام في وجوه الجنود المتوتّري القسمات المتدثّرين بالحديد والنار.

عندما صدر نداء المقاومة الأوّل، كان رجال الدفاع المدني والصليب الأحمر قد أنهوا رصف جثث شهداء مجزرة صبرا وشاتيلا في قبور جماعيّة، ووضعوا عليها كلساً أبيض كي لا تنتشر رائحتها في أجهزة الإعلام. في ذلك الوقت كانت أرملة بشير الجميّل تنتحب

وسط ذهول «القاعدة» التي لم تصدّق أنّه عُرف من خاتمه الزوجيّ عندما انتُشلتْ جثّته من تحت مبنى قيادة حزب الكتائب بالأشرفيّة. وأمّا دبّابات الاحتلال فكانت تندفع على طرقات معبّدةٍ خاليةٍ من عوائق الأسمنت والسواعد.

وإذ يتحدّث كثيرون عن انطلاقة جبهة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة فإنّهم يتصوّرون أنّها قد نشأت من فراغ الهزيمة. لكنّ الواقع أنّ الانطلاقة تلك زرعت أملاً في مساحة الصمود الذي سبقها على امتداد حوالي ربع قرن، وهي المساحة التي تُوّجت بمعركة بيروت المجيدة. ولهذا فإنّي لن أتحدّث عن انطلاق القذيفة الأولى كصوت نبوءةٍ قادمةٍ على صَهَوات الخيل والمدن المتعثّرة بالصمت والرماد. حسبي أن أحكي عن ثلاثة شهداء من شهداء المقاومة الأوائل الكثر:

* * *

نشرت جريدة يوميّة صورةً على عمودين، لا يبدو منها أكثر من جسد مغطّى بجرائد على ضفّة طريق. الكلام الذي وضع تحت الصورة يقول: «جثّة المسلّح الذي قتلته القوّات الاسرائيليّة». . . وأمّا الخبر فقد جاء على نحو مشابه لكلام الصورة، إذْ يقول «إنّ ثلاثة مسلّحين حاولوا نهار أمس التصدّي لدوريّة اسرائيليّة على طريق الحدث، فأطلقوا عليها نيران قاذف صاروخي ورشّاشاتٍ خفيفة؛ وقد ردّت الدوريّة على النار بالمثل وأردت أحدهم، الذي لم يُعثر معه على أوراق، وقد ظلّت جثّته ساعاتٍ ملقاة على الطريق قبل أن تنقله سيّارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر اللبناني، وفرّ رفيقاه باتّجاه الضاحية الجنوبيّة». على هذا النحو صاغ المحرّر الخبر. والجثّة وضعت في برّاد مستشفى «البربير»، برعاية ضابط استخبارات اسرائيلي قدّر أنّ رفاق الشهيد سيحضرون سريعاً إلى المستشفى فيتمكّن الضابط إذّاك من اصطياد بقيّة المجموعة والإيقاع بالشبكة المقاومة.

الاسم: مهدي. اسم العائلة: مكاوي. الرتبة: **الشهيد الأوّل لجبهة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة**. مهدي مكّاوي قاد المجموعة الصغيرة المؤلّفة من ثلاثة مقاتلين، زرع الكمين وحدّد مواقع أفراده ومهمّة كلٍّ منهم. في العاشرة صباحاً كانت الدوريّة الاسرائيليّة تتقدّم. آليّتان لا آليّة واحدة. الاستطلاع المتكرّر كان قد أعطى معلومات تُشير إلى قدوم آليّة واحدة فقط. غير أنّه لم يعد هناك مجال للتراجع، وبات المطلوب التعامل مع الدوريّة. فأطلق الرامي القاذفَ الصاروخي على الآليّة الأولى فأعطبها، وتكفّل مهدي بالاندفاع نحو الثانية بقنابله ورشّاشه، فيما كان العنصر الثالث يتولّى التعامل مع الموقع الفاشي القريب لتأمين عدم مساهمته في قطع الطريق على انسحاب المجموعة بعد تنفيذها المهمّة. ألقى مهدي قنابله على الآليّة الثانية وأُصيب برصاص غزير، فاتّكأ على ضفّة الطريق وانحنى على جرحه الذي غطّاه المارّة بجرائد قديمة. وأمّا المجموعة فقد انسحبت نحو أماكن انطلاقها.

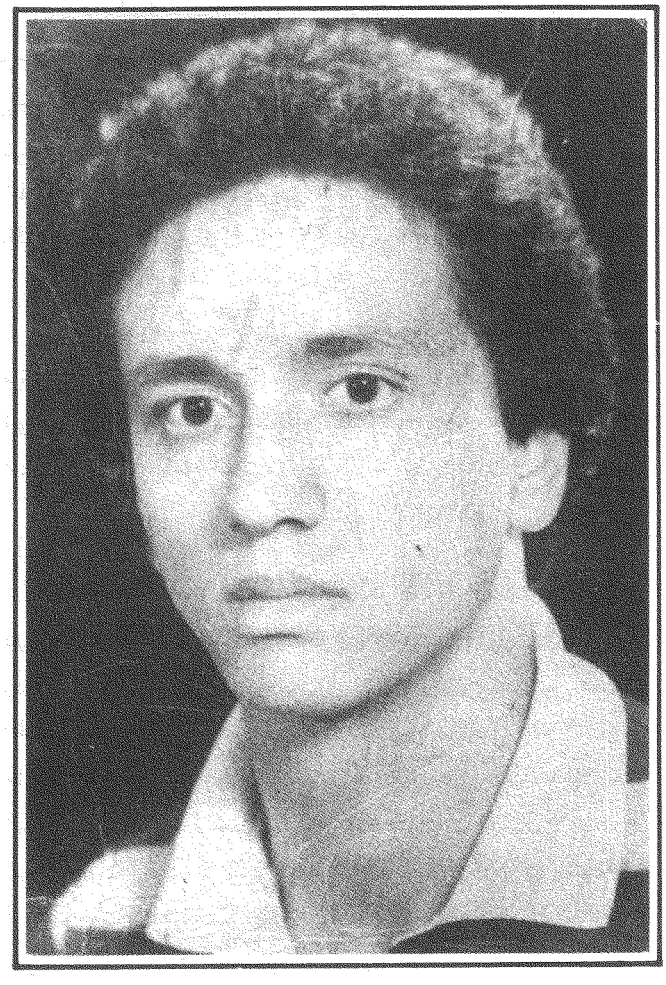

الشهيد مهدي مكاوي

كأنّ مهدي مكّاوي كان يجب أن يكون الشهيد الأوّل للمقاومة الوطنيّة اللبنانيّة دون سواه. لماذا؟ للذين لا يعرفون فقط، أقول إنّ الشاب مهدي مكاوي كان لا بدّ أن يسقط في لبنان وعلى رأس كوكبة شهداء دحر الاحتلال. ذلك أنّ مهدي مكاوي يختصر تاريخ جيل من المقاتلين الثوريّين في لبنان. وليس الأمر من قبيل المبالغة. فمن يعرفْ تاريخه يجزم بذلك: مهدي مكّاوي لم يترك جبهة واحدةً «تعتب عليه». لا أتحدّث هنا عن جبهات الحرب الأهليّة في لبنان،

وإنّما أقصد جبهات الصراع على مستوى المنطقة العربيّة، أو الشرق الأوسط بالأصحّ. قليلون هم الذين يعرفون أنّ مهدي مكّاوي ربّما هو اللبناني الأوّل الذي أطلق رصاصه على عرش شاه إيران وآلته العسكريّة. كان واحداً من أوائل المقاتلين الذين حملوا السلاح لدكّ حلم إعادة بناء امبراطوريّة فارسيّة محدثة لها الموقع الأوّل والمقام الحاسم في توازنات المنطقة. وكان مهدي فتى يافعاً مع ذويه في إيران. لم يكمل مهدي دروسه. ترك شنطة الكتب المدرسيّة واستبدلها بالرشّاش وجعبة الذخائر، وقاتل هناك طويلاً.. لكنّه لم يرجع إلى لبنان مباشرة. ساهم في ثورات الأكراد. تعرفه تماماً جبالُ كردستان، ويعرفه المقاتلون الأكراد، ويعرفون لكنةَ اللبناني ـ العربي الذي يجيد الفارسيّة والرماية على الأهداف، لا فرق أن تكون هذه الأهداف في إيران أو كردستان أو لبنان.

عندما سقط مهدي مكّاوي على حافّة طريق صيدا القديمة كان يؤشّر بدمه إلى الجنوب دون سواه. وغار دمه في التراب، فيما كانت الوحدات النظاميّة اللبنانيّة تطوّق الضاحية بحثاً عن رفاقه الذين امتصّهم حشدُ الناس الفقراء.

* * *

شهد كمال، عام ١٩٦٨، معركة الكرامة، التي كانت مفصلاً في تاريخ المقاومة الفلسطينيّة، وشارك فيها تلاها من المعارك في الأردن، ودافع عن مخيّمات عمّان، ووصل إلى لبنان، وعاش تفاصيلَ معارك الجنوب واحدة إثر واحدة، ثمّ حلّ الغزو الاسرائيلي عام ٨٢ وبلغ ما بلغه من احتلال. ولمّا كان كمال قد ظلّ على مضائه فإنّ تعب السنوات الطويلة لم يحلّ عليه. لقد أدرك أنّ القتال لا بدّ أن يستمرّ، وأنّ الحرب لا تنتهي بمجرّد رغبة «بيغن» أو إرادة «شارون» أو طموحات بشير الجميّل التي استقامت له الأمور بعد أن استعصت على حزبه طويلاً. إنّ الحرب لا تنتهي إلاّ حين تتحقّق الأهدافُ الوطنيّة والقوميّة التي تبتعد كلّما أوغل كمال في التحليل وتقترب كلّما أطلق العنان لإرادته. ولأنّ كمال من الذين يجيدون التعامل مع الاحتلال، فقد شارك في العمليات الفدائيّة. وفي إحدى المرّات كان على رأس مجموعة حاولت تخليص أسرى من موقع معادٍ على بعد عدّة كيلومترات من خطّ وقف إطلاق النار. يومها لم يتمكّن ومجموعته من ذلك. فاكتفى بالقضاء على حامية الجسر، بعد أن فوجئت مجموعته بكمين للعدو. كان الصقيع يغطّي التراب، والكمين أطلق ناراً كثيفة. الذين كانوا يتتبّعون العمليّة يذكرون أنّهم قالوا إنّ المجموعة لن تنجو. يقول كمال: «كانت النار تستهدفني وقد التصقتُ بتراب رطب...» ويضيف: «شعرت يومها وكأنّي أعود طفلاً إلى حضن أمّي. كان التراب دافئاً وحانياً. ورجعنا بعد أن فقدنا أحد العناصر». في عمليّة ثانية لم يرجع كمال، وغاب مقاتل آخر. قام الأهالي بدفن المقاومَيْن في حفرة واحدة. وبعد سنوات، عندما أرغم رفاق كمال العدوَّ على الانكفاء عن تلك المساحة من أرض الوطن، جاء ذووه لأخذ جثمانه ودفنه في مقبرة القرية. كان من المستحيل أن يتعرّفوا على الجثّة، فحملوا الجثّتين معاً وقاموا بدفنهما في مقبرة العائلة.

في تقرير ميداني عن العمليّة ورد للقيادة يومها ما يلي:

مجموعات مشتركة من المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة والمقاومة الفلسطينيّة نفّذت هجوماً على سلسلة مواقع معادية بعد أن عبرت النهر. وقد دمّرت المجموعات ثلاثَ آليات للعدوّ، ويعتقد أنّ إصابات العدوّ لا تقلّ عن إحدى عشرة إصابة بين قتيل وجريح. خسائرنا: مقاتل لبناني وآخر فلسطيني.